الخلافة :
دراسة ونص لابن مرزوق

د. سهيل زكار
كلية الآداب - جامعة دمشق

في التاريخ القريب من ظهور الاسلام بشبه جزيرة العرب كانت دولة النبي ﷺ ، التي أسسها بعد الهجرة الى المدينة ، هي أول دولة ذات سلطة مركزية ، وقد رأس النبي طوال حياته هذه الدولة ، وذلك بحكم النبوة وأحكام أخرى ، وطوال حياة النبي لم تمر دولته بأية مشاكل سياسية داخلية ارتبطت بجماعات معارضة أو ماشاكلها فالنبي ﷺ تم اختياره من قبل الله تعالى ، وحين أقام دولته في المدينة جمع الى صفه النبوة صفة رجل الدولة ، وكانت المعارضة للنبي ضرباً من ضروب الكفر .

إنما حيث لاديمومة لإنسان ، نجد أن النبي ﷺ يقع في السنة العاشرة لهجرته الى المدينة مريضاً ، وطال مرضه وعظم ، فلزم بيته وفراشه ، ولم يعد يمكنه إمامة المسلمين في الصلوات ، لذلك استخلف صاحبه الوفي ، وحليفه القديم ، أبا بكر ، وأوكل اليه القيام بقيادة الصلوات الخمس .

ويبدو أن مرض الرسول ، واشتداد هذا المرض خلقا في المدينة جواً من القلق والتوجس ، حيث طرح الكثير من المسلمين أسئلة كثيرة حول مستقبل الاسلام والمسلمين ، كما أثاروا مسألة قيادة الامة بعد النبي ، ومن الواضح أن صدى هذه الامور كان ينقل الى النبي ، وتوحي بعض المصادر بأن الرسول ﷺ أراد أن يضع حلاً للمشكلة (1) ، لكن من المؤكد أنه لم يفعل ،

1 - انظر مصنف عبد الرزاق : ٥ / ٤٣٥ - ٤٣٩ . طبقات ابن سعد ٢ / ٢٥٠ . صحيح البخاري : ٥ / ١٤٠ - ١٤١ . سنن الدارمي : ١/٣٥ - ٣٦ . تاريخ خليفة بن خياط : ١/٦٨ .

وكل ما قام به هو التشديد بالوصية على التمسك بما جاء في القرآن ، ولذلك أسبابه ..

ويبدو أنه أثناء مرض الرسول ﷺ ، اجتهدت جماعات من المسلمين لايجاد حلول في مواجهة الازمة المقبلة وعلى هذا ، يمكن تقسيم عرب الجزيرة من حيث التفكير والتخطيط أثناء مرض النبي ، وعقب وفاته مباشرة الى الفئات التالية :

١ ـ فئة مسلمة كان ايمانها خالصاً ومحضاً ، آمنت قديماً ، وظلت تؤمن بأن الاسلام رسالة ينبغي أن تستمر وتدوم وتنتشر في كل بقاع العالم ، لذلك وضعت الخطط لمواجهة كل طارىء ، وكانت تدرك قوتها وضعف الفئات الاخرى ، وتعرف مكانتها القبلية والاقتصادية والاسلامية ، وقد مثل هذه الفئة : أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب ، وأبو عبيدة عامر بن الجراح .

٢ ـ فئة مسلمة كان ايمان بعض أفرادها قديما لاتشوبه شائبة ، وقد ضمت أسرة النبي وآله ، وكانت هذه الفئة قليلة الرجال ، تعاني من تناقضات خفية ، وأهم أفرادها علي بن أبي طالب ، وعمه العباس ، وقد شغل مرض النبي أفراد هذه الفئة ، وحال ذلك ، مع أمور أخرى ، بينها وبين التحرك السياسي ، والتخطيط لتولي السلطة ، ولربما ظنت أن الأمور لن تسير بسرعة ، كما حدث ، وأن المسلمين لن يقدموا على عمل دون مشاركتها وأخذ آرائها بعين الاعتبار .

٣ ـ فئة مسلمة ، ربما كانت متضايقة من فقدانها لنفوذها ، وسيطرتها على مدينتها ، خططت للعودة بالامور السياسية الى ما كانت عليه قبل الهجرة ، ومثل هذه الفئة سكان يثرب من الأوس والخزرج ، الذين عرفوا باسم الانصار ، وتجلت خططهم هذه واستعداداتهم في اجتماع سقيفة بني ساعدة ، بعد حدوث وفاة النبي مباشرة .

٤ ـ فئة حديثة الاسلام ، رأت أن من مصلحتها بقاء الاسلام واستمراره ، ورأت في وفاة النبي ﷺ فرصة يمكن أن تستغل ، ويستفاد منها في ركوب تيار الاحداث ، وتوجيهه فيما بعد لمصلحتها ، ومثل هذه الفئة سكان مكة والطائف من قريش وثقيف ، خاصة رجال المال والتجارة منهم ، ومن يقرأ تاريخ الاسلام منذ مقتل عمر بن الخطاب يرى كيف نجح رجال هذه الفئة في التحالف الارستقراطي القرشي الثقفي ، فسيطروا على الاسلام ودياره ، وحولوا ثورته لمصلحتهم ومصلحة طبقتهم ، وذلك بقيام الدولة الاموية ، وحتى بحلول الدولة العباسية محلها ، فالعباس كان انتماؤه الطبقي الى الارستقراطية ، وكان خدن أبي سفيان ، وقد أسلما في مناسبة واحدة .

٥ ـ فئة ضمت قبائل بادية شبه الجزيرة ، وأعرابها ، وقد دانت غالبيتها بالطاعة للنبي محمد ﷺ على غير طوع ، وظلت طاعتها له طاعة لزعيم ، ولم تكن طاعة لدولة عقائدية ذات نظام مركزي . لذلك ما إن توفي هذا الزعيم ، حتى شعرت بانحلال كل روابطها بجماعته . يضاف الى هذا أن كثيرين من زعماء القبائل ، وحتى بعض النساء الطامحات ، فقد رأت في النبوة ظاهرة « مودة » يمكن تقليدها واستخدامها وسيلة للزعامة ، ومرقى الى السيادة ، لذلك وجد بين العرب من



ادّعى النبوة في الايام الاخيرة للنبي ﷺ ، وأصبحوا من الكثرة بمكان ، وبرزت دعاويهم الى الوجود بشكل ظاهر بعد وفاته .

وفي ضحى يوم الاثنين « لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الاول ، ويقال لليلتين خلتا منه » [1] لسنة إحدى عشرة للهجرة توفي رسول الله ﷺ ، وما إن انتشر خبر وفاته ، حتى تجمع الانصار في ضاحية المدينة تحت سقيفة كانت لبني ساعدة ، وقرروا اختيار سعد بن عبادة أميراً ... وبلغ خبر الاجتماع الى مسامع أبي بكر وعمر وأبي عبيدة ، فقرروا التحرك بسرعة وذكاء وشجاعة ، فنجحوا في إحداث انقلاب سياسي في المدينة ، كان الاول والآخر من نوعه ، ونجح هذا الانقلاب بسبب عوامل داخلية وخارجية . وحين تحرك هؤلاء الرجال ، كانوا يعرفون أنه لايوجد خطر سريع يخشى أمره من المهاجرين من آل النبي لانهم شغلوا بمصابهم ، وشغلوا أنفسهم بتجهيز النبي ﷺ وكانوا يدركون أن الخطر يكمن في تحرك الانصار ، لكن التحرك الانصاري كان من الممكن تقويضه بإثارة بعض النعرات ، وبعث بعض التناقضات بين الاوس والخزرج ، ذلك أن الزعيم الذي سينتخبه الانصار ، سيكون فرداً من إحدى القبيلتين ، وحينئذ يمكن اثارة القبيلة الثانية ، ودفعها للمعارضة ، وهذا ما كان.

يضاف الى هذا ان الصديق مع صاحبيه كانوا يعرفون أن المدينة تحولت بعد الهجرة اليها من مدينة يثرب ، موطن الاوس والخزرج واليهود ، الى مدينة رسول الله ، ومنزل الاسلام والمسلمين من مهاجرين وانصار ، ذلك أن المهاجرين كانوا قد غدوا من الكثرة والقوة والغنى بمنزلة تفوق في كثير من الاوجه منزلة الانصار .

وكان ابو بكر وصاحباه يخشون الفتنة ، ويكرهون سفك الدماء ، وتفتيت صفوف الامة ، كما كانوا يعرفون أنهم هم ، دون سواهم ، بإمكانهم أن يحوزوا رضى سواد عناصر المسلمين وتأييدهم ، وخاصة جماعة المهاجرين والمكيين ، لانهم كانوا من زعماء قبائل قريش ، وذوي الثراء فيها قبل الاسلام ، وكان دخولهم الاسلام عن قناعة كاملة واخلاصهم واستماتتهم في سبيله أثر في رفع مكانتهم عن ذي قبل ، ومعروف أنه منذ بداية الاسلام وابو بكر هو « ثاني اثنين » وأن عمر بن الخطاب غدا ثالثهما لحظة دخوله في الاسلام .

وحين سمع أبو بكر وصاحباه بخبر اجتماع الانصار في سقيفة بني ساعدة ، تحركوا نحو مكان الاجتماع ، وفي طريقهم حذّروا من مخاطر ذلك ، لكنهم تابعوا طريقهم وعندما وصلوا مكان الاجتماع ، وجدوا سعد بن عبادة ، أحد زعماء قبيلة الخزرج ، قد أُعد لينصّب أميراً ، وكان سعد آنذاك مريضاً ، لايقوى على التحرك ، ولايقدر على رفع صوته . لذا عندما أخذ في الكلام ، قام أحد أهله بترديد كلامه ، واسماعه للمجتمعين ، أوضح سعد ، أن النبي محمداً ﷺ ما كان ليكتب له النجاح لولا مناصرة الانصار له ، ولذلك فأمر الحكم بعده خليق بهم وحقيق ، وختم كلمته بقوله مخاطباً قومه : « استبدّوا بهذا الامر فإنه لكم دون الناس » .

---

١ ـ تاريخ خليفه : ٦٨/١ .

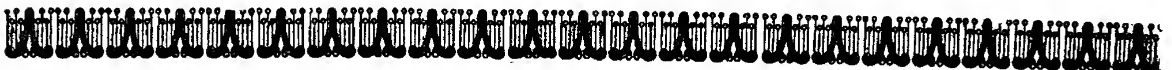
واتفق أن وصل ابو بكر وصاحباه الى مكان الاجتماع وكان قد ختم سعد كلامه ، وأحدث وصولهم مفاجأة ، لذلك بادر أحد الانصاربطرح السؤال التالي : « فإنأبت مهاجرة قريش ، فقالوا : نحنالمهاجرون ، وصحابةرسول الله الاولون ، ونحن عشيرته وأولياؤه ، فعلام تنازعوننا هذا الامر بعده ؟ فقالت طائفة من الانصار مجيبة له : فإنا نقول إذاً : منا أميرومنكم أمير ، ولن نرضى بدون هذا الامر أبداً ، فقال سعدبنعبادةحينسمعهذا : « هذاأول الوهن » .

وتفجرت هنا ضجة كبيرة ، وثار جدلطويل متشعب ، فوقف ابو بكر خطيبا ، فبين أن القضية ليست مشكلة اختيار أمير للمدينة ، بل مشكلة مستقبل الاسلام ، وضرورة انتخاب حاكم للامة كلها ، ترتضيه غالبيتها ، ومعظم أفرادها ، والمسلمون لايرتضون إلا أحد أفراد قريش .

وأثارت خطبة أبو بكر هذه ردة فعل بين المجتمعين ، وقام أحد الانصار فتهدد المهاجرين بقبول مايقرره الانصار طوعاً أو كرها ، فرد عليه عمر رداً عنيفاً ، وفي ذروة الجدل هذه تخلى بعض أقرباء سعد بن عبادة عنه لامور في نفوسهم ، وتهامس زعماء الاوس فيما بينهم فقالوا : « والله لئن ولّيتها الخزرج عليكم مرة ، لازالت لهم عليكم بذلك الفضيلة ، ولا جعلوا لكم معهم فيها نصيبا ابدا » ، وهنا قام أبو بكر فقال : « هذا عمر ، وهذا أبو عبيدة ، فأيهما شئتم فبايعوا » . وفي هذه اللحظة « كثر اللغط ، وارتفعت الاصوات » وفقد النظام بين المجتمعين ، وانهار مؤتمر الانصار ، وأخفقت خططهم ، وعندما حصل هذا ، وقبل أن تتفرق الجموع ، وقف عمر ، بقامته المديدة ، وصرخ بصوته المرتفع بالقوم ، ثم تقدم من أبي بكر قائلا : « ابسط يدك يا أبا بكر ، فبسط يده » فبايعه قائدا جديداً للأمة ، وتقدم بعض الموجودين ، فقلدوا عمر بما فعله ، وتقدم عمر من سعد بن عبادة يريد ضربه ، وعمر يقول : « اقتلوه قتله الله ، وتنبه أبو بكر لهذا فقال : « مهلاً يا عمر ، الرفق هاهنا أبلغ ، فأعرض عنه عمر » ومضى سعد الى داخل بيته ، ليسافر الى الشام ، فيموت في أحوال غامضة .

وانفض الاجتماع ، وتفرق الناس ، ولربما لم يأخذ معظمهم ما حدث من بيعة لابي بكرمأخذ الجد .

ويبدو أن ما حدث استغرق سحابة النهار، وعاشت المدينة ذلك اليوم وتلك الليلة في رعب شديد ، ومع اطلالة يوم الثلاثاء بادر الناس الى المسجد لاستطلاع الاخبار ، وعندما امتلأ المسجد ، صعد أبو بكر المنبر ، ووقف عمر الى جانب المنبر ، وتحدث معلنا للمسلمين ماحدثفي اجتماع السقيفة ، وشارحاً لما تم فيه من انتخاب أبي بكر ، ثم ختم كلمته بقوله : « إن الله قد جمع أمركم على خيركم ، صاحب رسول الله ـ ﷺ ـ ثاني اثنين إذ هما في الغار ، فقوموا فبايعوه » ، فاستجاب الناس ، وبايعوا أبا بكر ، وعقب البيعة ، وقف أبو بكر ، فأعلن في بيان



قصير سياسته وخططه ، وبيّن أنه سينفذ أوامر الله ورسوله دونما تجاوز .

وفي هذا الوقت كان خبر وفاة الرسول ﷺ ، قد انتشر الى خارج المدينة ، وقد ترامى الى المدينة أن بعض القبائل قد ارتدت عن الاسلام ، وأنها تعد العدة لغزو المدينة بغية نهبها ، فازداد الرعب بين سكان المدينة ، وكادت الفوضى أن تستولي عليها .

ولليوم الثاني على التوالي استنفد النهار ، وأهل المدينة في شغل شاغل ، وأهل النبي بات يهمهم دفن النبي ، وفي صبيحة يوم الاربعاء خرج العباس بن عبدالمطلب على الناس وخاطبهم قائلاً : « خلوا بيننا وبين صاحبنا فإنه يأسن كما يأسن الناس » وهنا تقرر دفن النبي حيث مات ، إذ كان من المتعذر اتخاذ جنازة رسمية ، فسوّغ هذا جريان القاعدة بدفن الانبياء حيث يقبضون ، كل هذا رغم أنه قال قبل وفاته بخمس : « إنه من كان قبلكم اتخذوا بيوتهم قبوراً ، ألا وإني أنهاكم عن ذلك ، ألا هل بلّغت ، اللهم اشهد ، اللهم اشهد » (١) .

وكان اللقب الذي شهر به أبو بكر بعد تسلمه لزمام السلطة لقب خليفة ، كما أنه تبعاً لذلك عرفت المؤسسة التي قامت إثر ذلك بمؤسسة الخلافة ، فمن أين جاءت هذه التسمية التي لم تذكر أثناء مناقشات السقيفة ، إذ إن الالفاظ التي استخدمت كانت لفظتي : أمير ، ووزير ، ثم بعد هذا ماهي صلاحيات الخليفة في البداية وكيف تطورت هذه الصلاحيات مع مرور الزمن ؟

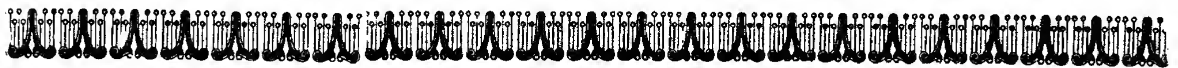
في الحقيقة لايمكن البحث في مسألة الخلافة ، وتطور أسسها ، ثم التحول في مفاهيمها السياسية والعقائدية ، دون أن تتعرّف المنطلقات السياسية لاصول الادارة عند العرب قبل الاسلام ، ثم تتبين كيف تطورت هذه الاصول ، واستبدل بها منطلقات جديدة ، بعد قيام الاسلام ، وتحقيق انتصاراته الاولى ، وتأسيس دولته .

ولابد لنا ، عند الشروع بمثل هذا العمل ، أن نجد أنفسنا ملزمين أن نعود نحو مكة لتعرّف أحوال الحكم والسياسة فيها بشكل أساسي ، ثم أحوال بقية أجزاء شبه جزيرة العرب ، حاضرها وباديها .

لم تعرف مكة قبل قيام الاسلام الحكومة المنظمة بأي شكل من أشكالها ، وحدود سلطاتها ، بل أديرت شؤونها من قبل كبار التجار ، وممثلي كبار الأسر القرشية ، ودعي هؤلاء باسم الملأ ، وكان الملأ يعقد الاجتماعات عندما تدعو الحاجة ، في دار مخصصة ، دعيت باسم دار الندوة ، وكان لمكة عدد من الشعب « الوظائفية » ، وزعت كل واحدة منها على أسرة من أسر قريش

---

١ ـ مصنف عبد الرزاق : ٤٣٣/٥ ـ ٤٣٥ ابن سعد ٢٢٥/١ ـ ٥٠٣ ، ٢٤١/٢ . تاريخ خليفة : ١٣/١ ـ ٧٦ . الطبري : ٣٩٥/٢ ـ ٦٥٧ ، ٩/٣ ـ ٢٢٣ . ابن : ٤٦٧/١ حتى نهاية الكتاب .



البارزة ، دون أن يكون هناك أية هيئة حاكمة ، أو وظيفة ثابتة ومحددة ، تتمتع بصفة من صفات الشرعية ، كما أن مكة لم تعرف أي نوع من أنواع الكهنة ورجال الدين الذين يمارسون الفصل في القضايا ، وإدارة الامور ، كذلك لم تعرف هذه المدينة أي نوع من أنواع القوة المسلحة الدائمة والشرط • وصحيح أن زعماءها كانوا يجتمعون أحيانا للتداول في القضايا والمشاكل في دار الندوة ، أو مكان آخر ، غير أن القرارات التي كانت تتخذ لم يكن لها صفة الإلزام ، إنما كان الاخذ بها اختياريا وفرديا ، هذا وكان اجماع زعماء مكة على أمر من الامور شيئاً متعذراً في كثير من الاحيان ، وكثيرا ما كانت المدينة تنقسم في مواقفها من القضايا ، فتعقد التحالفات المتضادة داخلها ، وفي النهاية كان النصر غالباً للحلف الاقوى ، أو للتسوية والمصالحة •

وفي كتب الاخبار والسير أحاديث طويلة ، حول بعض القضايا التي واجهها مجتمع مكة ، وحول أحلاف هذا المجتمع ، ويستفاد من بعض الاخبار ، أنه وجد لدى المكيين مفهوم واحد للشرعية الواجب الالتزام بأوامرها مهما كانت ، وارتبط هذا المفهوم بالكعبة التي كانت موضع إجلالهم وتقديسهم ، فعندما كان يجمع غالبية الزعماء المكيون على أمر من الامور ، كانوا يدونون ما أجمعوا عليه في صحيفة ، ثم يعلقون هذه الصحيفة في جوف الكعبة ، وهنا يأخذ الامر صفة الشرعية • ومن أوضح الامثله حول هذا ، ماعمله المكيون حين أعلنوا صحيفة مقاطعة بني هاشم ، التي اضطرت هؤلاء الى التزامها ، فتركوا مكة ، وأقاموا محصورين في شعب أبي طالب ، وعاشوا في ظل المقاطعة ، حتى مزقت الصحيفة (١) •

لاشك أن أمر التزام شرعية الاوامر التي كانت تعلق في جوف الكعبة قد ارتبط بقدسيتها ، حيث اعتبرها القرشيون مع عرب الجزيرة بيت الله الحرام ، وهكذا كان القرار المعلق نصه في جوفها يكسب صفة علوية إلهية ، وهذه مسألة في غاية الخطورة بالنسبة لاصول فكرة الشرعية ، والحكم في الاسلام •

ومع قيام الاسلام ، وبعد التبشير به ، لم يحدث تغيير جوهري فيما كان سائداً في مكة ذلك أن النبي لم يمارس أية سلطات في هذه المدينة ، حتى لربما على الذين آمنوا به وبرسالته ، ولم يَعْدُ أن كان مسموع الكلمة ، محترماً ، ومتبع الرأي بينهم •

وقد تبدل هذا الحال كلياً بانقضاء الفترة المكية ، وهجرة المسلمين الى المدينة حيث عمل النبي ، الذي أصبح بالاضافة الى صفة النبوة ، يتحلى بصفة زعيم الامة ، وحاكمها المطلق ، النابعة أحكامه من إرادة الله • عمل هذا النبي على انشاء أمة جديدة ، ذات تقاليد وقواعد

---

١ ــ سيرة ابن اسحق : ٦٢ ــ ٧٠ ، سيرة ابن هشام : ١/٣٥٠ ــ ٣٧٧ • طبقات ابن سعد ١/٢٠٨ ــ ٢١٠ • تاريخ الطبري : ٢/٢٣٥ــ٢٤٣ البدء والتاريخ : ٤/١٥٣ ــ ١٥٤ • هذا واستمرت عادة تعليق صحف المعاهدات والوصايا وغيرها في جوف الكعبة بعد قيام الاسلام ، ولعل من اوضح الامثلة على ذلك ما فعله هارون الرشيد حين قام بتولية اولاده العهد من بعده •

جديدة ، فلأول مرة في حياة مجتمع الشمال في شبه جزيرة العرب ، لا بل في مجتمع الجزيرة كله ، قامت تجربة جديدة للحكم ، مركزية السلطة ، لها قانون وشرعة ، حاكمها يملك وحده ـ لانه رسول الله ونبيّه ، لاينطق عن الهوى ـ له الحق في التشريع • ويقع على عاتقه في الوقت نفسه واجب تنفيذ الاحكام ، ولم يكن تطبيق هذا الرضا به من قبل العرب ، من الامور السهلة ، لكن رغم ذلك ، نجح النبي الى ابعد الحدود في إرساء قواعد لحكم الامة الجديدة التي أقامها ، وإن كان لم يأت بنظرية للحكم ذات أسس ، ومنطلقات ثابتة واضحة ••••

هذا وقد تناول بعض الكتّاب هذه القضية، حيث يرون أن النبي قد أتى بنظرية خاصة في الحكم والسياسة ، هي نظرية الشورى ، معتمدين على ما جاء في القرآن الكريم من آيات فيها « وأمرهم شورى بينهم » و « شاورهم في الامر » ، وقبل اطلاق عنان الخيال حول مرامي هاتين الآيتين ، وتحميله الامر اكثر مما يحتمل ، لابد لنا من وقفة •••

فقد جاء في سيرة ابن اسحق ـ ١٧٥ ـ « عن زيد بن أسلم : كان أصحاب رسول الله ﷺ على ثلاث فرق : فرقة بالمدينة ، وفرقتين بمكة ، فرقة كانوا يؤذون بمكة عشر سنين ، فيعفون عن المشركين ، وفرقة كانوا إذا أوذوا انتصروا منهم ، فانزل الله عز وجل عليهم جميعا فقال : « والذين يجتنبون كبائر الإثم» « وهو الشرك » « والفواحش » « وهو الزنا » وإذا ماغضبوا هم يغفرون » ، هؤلاء الذين كانوا لاينتصرون من المشركين ، « والذين استجابوا لربهم وأقاموا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم » الذين كانوا بالمدينة لم يكن عليهم أمير ، كان رسول الله بمكة ، وهم بالمدينة يتشاورون في أمرهم « والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون [1] » هؤلاء الذين انتصروا ••••

وحين أمر النبي بأن يشاورهم في الامر ، لم يبين القرآن قواعد الشورى هذه وحدودها وطرق تطبيقها ، كما لم يبين الى أي حد كان على النبي الاخذ برأي أصحابه واتباعه ، وعندما يعود الباحث الى كتب السيرة والسنن والمغازي يجد أن مفهوم هذه القضية لم يكن واضحاً عند أحد من الصحابة ، كما لم تتوضح معالمه في الممارسات العملية زمن النبي ، فحينما كان النبي يستشير أحد أصحابه ، أو بعضا منهم ، كان الجواب الاول « الله ورسوله أعلم » وعندما كان النبي يلح في السؤال ، كان جوابه سؤالاً عما عند الوحي في ذلك ، أو عما عنده هو شخصياً في ذلك ، حتى يأتي الجواب منسجما ، أو منطلقا من ايحاءات السؤال ومناحيه •

لقد ملك النبي وحده جميع فروع السلطة من تشريع وقضاء وإدارة وجباية وأعمال حربية ، وذلك بالاضافة الى صفته الاساسية وهي النبوة • وهكذا امتزجت مفاهيم السلطات الزمنية بمفاهيم السلطات الدينية في الاسلام ، وصار كل أمر في الدولة العربية الناشئة مزدوج الصفات زمنياً ودينيا • ولم تعرف دولة النبي التوظيف والموظفين الدائمين ، بل كان النبي

١ ـ الشورى (٣٨/٣٩/٤٠)

ينتدب أحيانا بعض أصحابه فيكلفهم ببعض الوظائف حين يبتعد هو شخصيا عن المدينة ، أو يرسلهم لتنفيذ بعض المهام ، مثل جباية الصدقات ، أو تفقيه الناس بالاسلام ، وإمامتهم بالصلوات ، أو تنفيذ مهمات عسكرية • وكان الذي ينوب عن النبي في إمامة الصلوات يدعى خليفة النبي ، وكان قائد الحملة العسكرية يسمى الامير • ولما كانت القوات التي يقودها هذا الاخير مؤلفة من المؤمنين ، تقوم بتنفيذ مهمة ضد جماعات غير مؤمنة ، فقد كان القادة العسكريون المسلمون يميزون عن قادة الاعداء بإضافة عبارة المؤمنين الى عبارة أمير بحيث تصبح « أمير المؤمنين »[1] •

وكان الخليفة على الصلوات يؤدي الصلاة ، كما يؤديها النبي ، دونما زيادة أو نقصان ، ذلك أن الخليفة هو النائب عن الاصيل الملتزم كلياً ماعهد اليه من أوامر وتعاليم •وكانت صلاحيات أمير الجيش أوسع من صلاحيات الخليفة ، ذلك أن قيادة العساكر تستوجب دائماً الطاعة المبرمه ، وتعطي القائد فرص التصرف ، وابداع الحلول ، واصدار مايراه ضرورياً من أوامر وتعليمات • ففي حين حرم الخليفة من صلاحيات التشريع ، منح ذلك الامير ، وتمتع به على قاعدة المصالح المرسلة •

ومع اتساع رقعة دولة النبي الجديدة ، وتحقيق المزيد من الانتصارات ، تعاظمت مسؤوليات الحكم ، ورافق هذا تقدم النبي بالسن ، فأخذت آثار المرض ، وما عاناه خلال حياته تظهرعليه جلية ، وهنا — كماسبق وبينّا — أخذ بعض المسلمين يفكر في مستقبل العقيدة ، وفي شؤون الحكم في الدولة ، ومع مرض النبي الاخير أصبحت هذه المسألة هاجساً جثم على صدور المسلمين ، وأثيرت هذه القضية قبل موت النبي • وتوحي بعض الاخبار أنه حاول وضع الحل لهذه المسألة ، لكن مرضه وأموراً أخرى حالت بينه وبين ذلك[2] ، هذا من جهة ومن جهة أخرى يرى البعض أنه ما كان بامكان النبي أن يوصي بالحكم من بعده لشخص محدد ، أو يبين حتى شكل الحكومة بصورة مفصلة ، لان مرضه ، وظروف العرب السياسية ومفاهيمهم ، مع تركيبهم الاجتماعي ، ما كان ليسهل تنفيذ أية وصية • يضاف الى هذا أن في الوصية تحديداً تأباه الايام وتطور العصور ، مع اختلاف البقع والشعوب ، وبذلك يتعارض مع قاعدة عالمية العقيدة الاسلامية • كما أن في تسمية ولي عهد للنبي اسباغاً للشرعية والقدسية الابدية ، وفيه إقامة لاسرة مالكة ذات حق إلهي • وهذا قطعاً يتعارض مع مبادىء الاسلام وعقائد النبي التي قضت بأن النبي آخر الانبياء والاسلام خاتم الرسالات ، كما يرفضه تطور التاريخ وكلنا يعلم الحدود التي استغلت فيها بعض الاشارات العرضية ، مثل استخلاف النبي لابي بكر على الصلوات ، ومثل حادثة غدير خم • ويكفي لتبيان هذا استعراض بعض كتب السنة والشيعة والخوارج والمعتزلة وسواهم في مسائل الإمامة والخلافة ، ومشاكل الخلاف بينها •

ويمكن حسم هذه القضية عندما تتذكر

---

١ — التراتيب الادارية : ١/ ٢ — ٨

٢ — مصنف عبد الرزاق : ٥/٤٣٥ — ٤٣٦
صحيح البخاري ٥/ ١٤٠ — ١٤١ .

أن الحاكم في دولة النبي ، وهي دولة الاسلام ، هو الله تعالى ، والنبي اختاره الله تعالى رسولاً ، وهكذا ظل طوال حياته ، وهو لم يتقم باختيار الله حاكماً ، والنبوة كل لايتجزأ ، وحيث أنه كان آخر الانبياء ، لم يكن ممكنا له أن يورث نبوته أو جزءاً منها أي مخلوق ، كما أنه كان من المحال بالنسبة له تسمية حاكم للأمة ، مهما صغرت صلاحياته أو كبرت ، يحكم من بعده ، لان في ذلك خروجا على القواعد والشريعة ، وحاشى له ﷺ أن يفعل ذلك .

لقد بين لأصحابه دائماً ، وشدد على ذلك وهو على فراش الموت ، أن في القرآن وسنته كل ماينير السبيل أمامهم ، ومن تمسك بالقرآن والسنة تمسك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها ولا ضلال معها .

وسلفت الاشارة الى أنه عندما اشتدبالنبي مرضه الاخير ، وألزمه الفراش قال : « مروا أبا بكر فليصل بالناس »[1] وبهذا الامر ، صار أبو بكر « خليفة رسول الله على الصلوات » ولعله شهر آنذاك بهذا اللقب ، وعرف بصيغته المختصرة « خليفة » ، فكان عندما توفي النبي يعرف بهذا اللقب ، وظل يعرف به حتى بعد تسلمه للسلطة يوم السقيفة ، واذا صح هذافيه تبيان لاصل لقب الخلافة ، وجواب للتساؤل الذي طرح في مطلع هذا البحث .

وبتسلم أبي بكر لمقاليد الحكم أصبح منصب الخلافة منذ ذلك الحين رسميا وأساسيا في الحياة السياسية للأمة الاسلامية ، بينما لم تكن له في البداية أية هوية واضحة المعالم والأسس .

وحاول أبوبكر في أول خطبة له بعد بيعته، تحديد معالم منصبه الجديد ، منطلقا من مفهوم كلمة « الخلافة » اللغوي ، ومن قاعدة الاستخلاف على الصلاة ، أي أن الخليفة نائب ملتزم كل الالتزام أوامر المنيب وأفعاله ، وشكل تصرفاته ، وظهر هذا في قوله : « إنما أنا متبع ولست بمبتدع ، فإن استقمت فتابعوني ، وان زغت فقوموني »[2] ، وظل أبو بكر طيلة فترة حكمه يعرف بخليفة رسول الله ، ذلك أنه لم يحتج الى تبديل لقبه ، لان مدة حكمه كانت قصيرة ، لم تحدث فيها مشاكل جديدة تحتاج الى تشريع . وهكذا مكث أبو بكر طيلة عهده يعتبر نفسه نائباً عن النبي ، منفذاً لكل ما جاء به ، ويرى نفسه أنه لا يملك أية صلاحيات تشريعية ، كما لايملك اجبارالمسلمين على ركوب خطة لم يحدد معالمها النبي والقرآن الكريم .

ومات أبو بكر والحالة هذه من حيث الجوهر بدون تغيير ، لكن في أواخر أيام حياته اتسعت رقعة الدولة العربية فشملت مناطق خارج شبه الجزيرة ، كما أنه تجمع في الاقاليم المفتوحه قوات عربية مسلحة ، لاريب أنها أخذت تتطلع

---

١ ــ مصنف عبد الرزاق : ٥/٤٣٢ــ٤٣٣ . ابن هشام : ٢/ ٦٥٢ ــ ٦٥٣ . ابن سعد : ٢ / ٢١٥ ــ ٢٢٤ صحيح البخاري : ٥/ ١٣٧ . الطبري : ٢ / ١٩٦ ــ ١٩٧ .

٢ ــ الطبري ٢/٢٢٤ .

نحو اسماع صوتها ورأيها في السلطة وشكل الحكم •

وكان الحل جاهزاً عند أبي بكر ، لقد كان هناك عمر بن الخطاب ، ثالث رجالات الامة الاسلامية بعد النبي وأبي بكر ، وقام أبو بكر قبيل وفاته بكتابة عهد أوصى بموجبه بالخلافة من بعده لعمر • وصحيح أن وصول عمر للسلطة بعد أبي بكر كان أمراً بديهيا بالنسبة لمعاصريه ، لكن مايهمنا هنا هو كتاب الوصية ، فأبو بكر كان أول من سمّى ولي عهد له في الاسلام •

وتسلم عمر بن الخطاب الخلافة بعد أبي بكر ، وقام بمتابعة أعمال الفتوحات ، واقتضى هذا منه استنفار كافة البالغين من أفراد الامة الاسلامية ، بحيث شكلت الامة جيشاً من المؤمنين ، ابن الخطاب أميره الاول ، هذا واستجد في عهد عمر مشاكل لم يكن للمسلمين عهد بها ، مثل قضية توزيع أراضي سواد العراق ومشاكل الغنائم الاخرى ، وقضية نصارى تغلب ، حيث رفضوا دفع الجزية ، مع مسألة المؤلفة قلوبهم ، وغير ذلك كثير • واقتضى الحال الآن مواجهة هذه القضايا وإبداع حلول لها ، وكان الاقدام على ذلك من قبل عمر ، فمنح نفسه بعض الصلاحيات التشريعية ، وكان هذا ما قام به •

لقد أوقف عمر عمليات توزيع السواد ، وأعفى نصارى تغلب من دفع الجزية مقابل مضاعفة الصدقة عليهم[1] وألغى الدفع لجماعة المؤلفة قلوبهم • وحين أقدم عمر على هذا فأوقف الحكم بقوانين سابقة ، وأحل محلها قوانين جديدة ، كان يفعل أمراً لم يصنعه أبو بكر ، ولذلك لم يعد عمر والحالة هذه خليفة بمعنى النائب ، بل تصرف كتصرف أمير الجيش ، الذي رسم له قائده خطة ، وأعطاه تعليمات خاصة ، لكنه في ساحة المعركة ، وأثناء التطبيق وجد من الضروري تعديل بعض بنود الخطة ، ومخالفة بعض التفاصيل ، إنما دون المساس بالجوهر والغايات الاساسية •

ولعله لقيام هذا الحال تخلى عمر عن لقب خليفة ، ليكتسب لقب « أمير المؤمنين » ، وفي هذا التغيير (مؤشرات) تدل على تبدل جوهري في المفاهيم السياسية للدولة الاسلامية ، لاسيما وأن العرب المسلمين كانوا قد اختلطوا بشعوب كانت خاضعة لفارس وبيزنطة قبل خضوعها للعرب ، فتركت بعض التأثير •

ومع امتداد الايام ، واتساع رقعة الدولة ، وبروز المشاكل الجديدة ، أصبح الناس أكثر تقبلاً لاعطاء الخليفة صلاحيات أوسع في التشريع ، ولاريب أن عمر بن الخطاب كان متنبها لذلك سلباً وايجابا ، لذلك بحث عن قاعدة ليرتكز عليها في المستقبل ، غير أن اغتياله المفاجيء ، جاء ليمنعه من إتمام هذا الامر •

وبعد موت عمر ألمّ بمؤسسة الخلافة تغييرات كبيرة • تجلت في عصر عثمان ثم أيام خلافة علي ، وأخيرا ، لكن ليس آخرا ، في استيلاء معاوية على مقاليد السلطة ، وانتزاع لقب الخلافة لنفسه • وقامت قوى كثيرة تعارض معاوية وحكم الاسرة التي أسسها ، وغالبا ماقاد

---

١ ــ خراج ابي يوسف : ٢٨ ــ ٤٧ •

المعارضة أحد أفراد الاسرة العلوية أو سواهم من قريش وغيرها ، ونظراً لاختلاط المفاهيم في الاسلام فقد تحولت حركات المعارضة تدريجيا من حركات سياسية الى حركات دينية سياسية ، وفي الاسلام يحمل القائد الديني لقب الإمام ، لذلك برز الى الوجود مؤسسة جديدة هي مؤسسة الإمامة .

* * *

إن الحديث عن هذا المجمل بشكل مفصل ينبغي أن يفرد في بحث آخر قائم بذاته ، لأن البحث الحالي ، جاء أساساً كمقدمة لنص عن الخلافة ، وهذا النص يشكل واحداً من بين مالا يمكن حصره من النصوص التي كتبها المسلمون في السياسة والحكم والتاريخ ، وجاء اختيار هذا النص لاسباب وجيهة منها :

أن صاحبه يعود الى العصر المريني المتأخر، وهو عصر نهاية الاندلس ، كما أنه عصر متميز بالكتابات السياسية والفكرية والتاريخية والدينية بشكل عام . ذلك أنه بالأساس ، عندما ورث بنومرين دولة الموحدين العقائدية ، اضطروا إلى اتباع سياسة دينية خاصة . ذلك أنهم لم يملكوا النسب القرشي ، كما أن سندهم القبلي لم يكن متيناً ، لهذا أولى بنو مرين علماء المالكية عنايةكبيرة ، وحرصوا علىسياسة الجهاد في الاندلس والظهور بمظهر العدل وغير ذلك من مظاهر التدين .

يعرف صاحب هذا النص باسم ابن مرزوق ، وقد جعله مقدمة لكتابه « المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن » ، وقد عاصر ابن مرزوق لسان الدين ابن الخطيب كما عاصر ابن خلدون ، وكان مثله في الحياة والتجربة ، حيث عاش في المغرب والاندلس ، وتونس وأخيرا مصر ، كما زار الحجاز والشام. وعلى ذلك كانت تجربته إسلامية شمولية فيها الغرب والشرق ، وفيها نظام الملك المريني ، والحكم الغرناطي ، والحفصي ، والمملوكي .

وابن مرزوق هو محمد بن أحمد ، شهر بالجد ، ولقب بشمس الدين ، ولد بتلمسان مابين « ٧١٠ ــ ٧١١ هـ » ، وأسرته كانت من أسر تلمسان الدينية ، وظيفتها الخدمة في ضريح أبي مدين . ولي تلمسان ، وكانت سكناها بالعباد في ضاحية هذه المدينة ، ولقي ابن مرزوق منذ بداية حياته العناية من أبيه ، حيث دفع الى خيرة الشيوخ ، كما رافق أباه في رحلته الى المشرق ، وجاور معه في مكة ، ثم رجع معه الى القاهرة ، فأقام بها ، وقرأ على عدد من شيوخها، ثم عاد الى المغرب الاوسط . وفي تلمسان التقى بالسلطان المريني أبي الحسن علي «ت : ٧٥٢هـ» فالتحق بخدمته ، وأصبح متقدماً في بلاط المرينيين الجديد في فاس . وقد تقلّد ابن مرزوق آنئذ عدة مناصب وسفر الى اسبانية الاسلامية وكذلك الى المسيحية ، ويبدو أن السلطان أراد أن يكتب بيده ربعة ليقفها على المسجد الحرام في مكة ، فأخذ ابن مرزوق يساعده ، ثم حدثت أمور أدت الى ذهاب المُلْك من أبي الحسن ، وصارت السلطنة بعده في فاس لابنه أبي عنان فارس (ت : ٧٥٩ هـ) وعانت بلاد المغرب الاقصى آنئذ مع الاوسط من مشاكل واضطرابات كثيرة

حول الحكم وغير ذلك ، وكان لابن مرزوق دوره في الاحداث ، إلا أنه تمكن من الالتحاق بأبي عنان في فاس ، وصار من رجاله المقربين . وبعد فترة سفرعنه الى تونس ، ولم تكلل سفارته بالنجاح ، لذلك أودعه أبو عنان في السجن ، لكنه لم يمكث به طويلاً إذ أطلقه قبيل وفاته .

وبعد وفاة أبي عنان بعدة أشهر نال أخوه أبو سالم ابراهيم السلطنة في فاس ، فقرب ابن مرزوق ، وجعله الشخصية الاولى في دولته ، لكن هذا السلطان لم يمكث في الحكم إلا « سنتين وثلاثة أشهر ، وخمسة أيام » حيث اغتيل في مؤامرة تمت في قصر السلطنة ، وحل محله أخوه أبو عامر تاشفين ، وحلت النكبة بابن مرزوق حيث أودع السجن ، مع النية لقتله والتخلص منه .

ومن سجنه أرسل ابن مرزوق الى السلطان الرسالة التالية :

الحمد لله على كل حال .

أخرج الطبراني في منسكه ، وأبو حفص الملائي في سيرته عن عبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهم ، أنهما قالا : وقف رسول الله ﷺ على الثنية ، التي بأعلى مكة ، وليس بها يومئذ مقبور ، فقال : يبعث الله من هاهنا سبعين ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ، يشفع كل واحد منهم في سبعين ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ولاعقاب، ووجوههم كالقمر ليلة البدر ، فقال أبو بكر : من هم يارسول الله ؟ فقال : هم الغرباء من أمتي، الذين يدفنون هاهنا .

ففي هذا الموضع دفن والدي رحمه الله ، وبعد سماعه هذا الحديث بسبعة أيام دفن فيه ، أفتراه لايشفع فيمن أقال عثرة ولده ، أفما يشترى هذا بأموال الارض ، أفلا يراعى لي ثمانية وأربعين منبراً في الاسلام شرقاً وغرباً وأندلساً ، أفلا يراعى لي أنه ليس يوجد من يسند الاحاديث الصحاح سماعاً من باب الاسكندرية الى البربر والاندلس غيري ،وقراءة عن نحو من مائتين وخمسين شيخاً ، والله ماأعلمه، لكن حرمني الله منه ، فنبذت الاشتغال به ، وآثرت اتباع الهوى والدنيا ، فهويت ، اللهم غفرانك ، أفلا يراعى لي مجاورة نحو اثني عشر عاما ، وختم القرآن في داخل الكعبة ، والاحياء في محراب النبي ﷺ ، والإقراء بمكة ، ولا أعلم من له هذه الوسيلة غيري ، أفلا يراعى لي الصلاة بمكة ستاً وعشرين سنة ، وغربتي بينكم ، ومحنتي في بلادي على محبتكم وخدمتكم ، من ذا الذي خدمكم من الناس ، يخرج على هذا الوجه ، أستغفر الله ، أستغفر الله ، استغفر الله من ذنوبي ، ذنوبي أعظم ، وربي أعلم ، وربي أرحم والسلام .

إن هذه الرسالة مرآة لعصر بني مرين ، كما فيها بيان لقدر ابن مرزوق ومكانته في الدين والدنيا ، ولهذا أطلق سراحه ، وسمح له بمغادرة المغرب الى تونس ، حيث التحق بخدمة ملكها ، ثم ما لبث أن توجه الى مصر ، وفي القاهرة المملوكية التحق ابن مرزوق بخدمة السلطنة ، « ولم يزل مقيما بالقاهرة ، موفر الرتبة ،معروف الفضيلة ، مرشحاً لقضاء المالكية ، ملازما

للتدريس في وظائفه الى أن هلك سنة احدى وثمانين » .

وأثناء اقامة ابن مرزوق بالقاهرة ، تقلبت الاحوال في دولة بني مرين حتى آلت السلطنة الى أبي فارس عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن (ت : ٧٧٣ هـ) ، وأثناء حكم هذا السلطان علم ابن مرزوق بأن السلطان أمر باعداد الربعة التي كان أبوه قد كتبها ليرسلها لتوقف باسم أبيه في بيت الله الحرام ، وكان حنين ابن مرزوق للعودة الى بلاط فاس الجديد شديداً ، لذلك ما إن علم بذلك حتى أعد نفسه ورشحها لتكلف بمهمة مرافقة الربعة ، فقام بكتابة كتاب تحدث به عن سيرة السلطان أبي الحسن وألح على علاقته به ، وضمن هذا الكتاب مادة سياسية هامة ، كما أودع فيه مادة تاريخية خطيرة ، ودعا هذا الكتاب باسم « المسند الصحيح في مآثر مولانا أبي الحسن »[1].

ولم يفلح مسعى ابن مرزوق ، لكن كتابه هذا الذي صنفه في القاهرة وبعث به الى فاس ، انتشر في المغرب ، وحفظت بعض نسخه ، وقد تنبه بعض الباحثين حديثا لاهمية هذا الكتاب ، فقام المستشرق ليفي بروفنسال باتنخاب المادة التاريخية الواردة فيه ، ونشرها سنة ١٩٢٥ في باريس ، وقد اعتمد في عمله على نسخة خطية محفوظة الآن في مكتبة دير الاسكوريال في اسبانيا ، ويوجد من هذا الكتاب نسخة جيدة محفوظة الآن بالخزانة العامة في الرباط ، اطلعت عليها ، وقمت بنسخ مقدمتها ، التي تحدث بها ابن مرزوق عن الخلافة ، إنما ينبغي ألا يفوتني هنا القول بأن عملي هذا وعمل بروفنسال قبله، ينبغي أن يؤخذ كتذكرة تنبه الى أن مسند ابن مرزوق ، كله ، ينبغي نشره ، ذلك أن هذا الكتاب كتب جميعه لغرض واحد ، وضمن معطيات محددة ، ولا يمكن معرفة ذلك تماما إلا بنشر هذا الاثر الثمين بشكل محقق علمياً لاتجاريا .

وتخيرت حصره في مقدمة ، وأبواب وخاتمة ، وسميته :

« المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن . »

أما المقدمة فتشتمل على فصول .

الفصل الاول – في حقيقة الخلافة

أما لغة ، فموضوع هذا اللفظ : هو القائم مقام غيره ، من قولهم : خلف فلان فلاناً ، والخلف بتحريك اللام ، من الصالحين[2]

---

١ – التعريف بابن خلدون . ط . القاهرة ١٩٥١ : ص ٤٩ – ٥٥ . الحلل الموشية في الاخبار المراكشية : ط . الدار البيضاء ١٩٧٩ : ص ١٧٩ – ١٨٠ . البستان في ذكر الاولياء والعلماء بتلمسان . ط . الجزائر ١٩٠٨ : ص ١٨٤–١٩٠ . الاحاطة في أخبار غرناطه . ط . القاهرة ١٩٧٦ ٥/ ١٠٣ – ١٣٠ . الديباج المذهب : ط . القاهرة ١٩٧٦ : ٢/٢٩٠ – ٢٩٦ . نفاضة الجراب . ط . القاهرة : ص ٢٣ ، ٣١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٦٣ – ١٦٦ – ١٩٠ – ١٩٣ ، ٢٣٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٤ ، ٢٧٧ – ٢٧٨ . جذوة الاقتباس : ط . الرباط ١٩٧٣ : ١/٢٢٥ – ٢٢٧ . نفح الطيب . ط . القاهرة ١٩٤٩ ٧ / ٣٠٩ – ٣٣٨ – الاستقصا . ط . الدار البيضاء ١٩٥٤ : ٢/١٢٧ الاعلام للمراكشي . ط . الرباط ١٩٧٦ : ٥ / ١١ – ٢١ .

٢ – كتب فوقها بالاصل : كذا .

اصطلاحا ، وأما حقيقته الشرعية ، فهو عبارة عمن يقوم مقام النبي ﷺ ، وينوب منابه في الرعاية والحفظ .

وزعم ابن العربي ، في سراج المريدين[1] ، أن هذا هو موضوع هذا اللفظ لغة ، وليس به ، والاصل في إطلاق هذا الاسم عليه قوله تعالى : « وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة »[2] ، فقيل تسمى بذلك لانه خلف الجان في سكن الارض ، وقيل خلف الملائكة ، وقيل خليفة يحكم بيني وبين خلقي ، فكأنه سبحانه جعله خليفة بهذا المعنى ، وهذا هو آدم ، ومن قام مقامه من ذريته ، وهو اختيار ابن مسعود ، وجماعة .

وذكر الله الخلافة في الارض لخمسة نفر : لآدم عليه السلام ، فكان الحاكم في الارض ، ولداود عليه السلام في قوله : « يا داود إنا جعلناك خليفة في الارض فاحكم بين الناس بالحق[3] » ، ولهارون عليه السلام في قوله : « وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي وأصلح[4] » ، وللصحابة رضي الله عنهم في قوله : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم[5] » يعني الانبياء عليهم السلام ، وقال تعالى في المؤمنين : « ويجعلكم خلفاء الارض[6] » ، لان المسلمين أتوا آخر الامم مع نبيهم ﷺ ، وقيل إن الخلفاء أربعة أنبياء ، كما أن الصحابة رضوان الله عليهم أربعة: وهم آدم ، وداود ، وهارون ، وسليمان عليهم السلام (ه) ، وقد ثبت أن سليمان عليه السلام كان خليفة في جميع الارض ، وحاكما على الانس والجن ، قاله ابن العربي في القانون .

وقيل إن محمداً ﷺ خليفة الكل ، لأن الله تعالى بعثه للانس والجن ، وأوجب على مجموع أهل الارض الايمان به ، فهو الخليفة الاول ، في الشرف والفضل ، والآخر في البعث ، ويدل على تسميته ﷺ خليفة ، ماذكره القاضي في الشفاء ، أنه لما صلى مع الملائكة ببيت المقدس ليلة الاسراء ، قالت الملائكة لجبريل عليه السلام : مرحبا بالأخ والخليفة[7] ، فنعم الأخ هو ، ونعم الخليفة ، وتكرر ذلك منهم في الإسراء .

الفصل الثاني

اختلف العلماء في الخلافة ، وهي الإمامة التي جرت عوائد أهل علم الكلام ، وأئمة أصول الدين بذكرها في خواتيم تواليفهم ، وإن كان الكلام فيها ليس من أصول الدين ، كما قال الاموي في الابكار ، بل هي من الفرعيات ، هل هي واجبة أم لا ؟ قال الاموي : وقبل النظر في ذلك لابد من تحقيق معنى الإمامة .

---

١ ــ لم استطع الوقوف عليه ، ويلاحظ ان ابن مرزوق اعتمد على مصادر سماها ، لكن ليس جميعها متوفر ، لهذا نبهت على ما توصلت اليه وصمت عن الباقي .
٢ ــ البقرة : ٣٠
٣ ــ ص : ٢٦
٤ ــ الاعراف : ١٤٢
٥ ــ النور : ٥٥
٦ ــ النمل : ٦٢
٧ ــ الشفا ــ ط بيروت : ١٨٢/١ .

قال بعض أصحابنا : إنها عبارة عن رئاسة في الدين والدنيا عامة ، لشخص من الاشخاص ، قال : وينتقض ذلك بالنبوة ، فالحق أن الإمامة عبارة عن خلافة شخص من الاشخاص للرسول ﷺ في إقامة قوانين الشرع ، وحفظ حوزة الملة على وجه يجب إتباعه ، فاختلفوا في وجوب نصب الإمام ، وطريق الوجوب اختلافا كثيرا ، وسيعا ، تقرر في علم الكلام ، وتلخيصه أن مذهب أهل السنة الأشاعرة أنه واجب (٦) على الناس سمعا ، قال الإمام في الاربعين ، وهومذهب اكثر المعتزلة والزيدية ، وذهب ابو الحسن البصري ، والبغداديون من المعتزلة الى أنه واجب على الناس عقلاً ، وذهب بعض الى وجوبه على الله[١] ، تعالى الله عن أن يجب عليه شيء .

وهؤلاء اختلفوا ، فمنهم من جعل طريق إيجابه عليه العقل ، ومنهم من جعل طريق إيجابه السمع ، وبوجوبه عليه عقلاً ، قال صاحب التجريد ، وهو كتاب عمت به البلوى ، وحصلت منه في الاصلاح داهية دهياء .

وذهب أبو بكر الأصم[٢] ، الى أنه لايجب مع الامر ، لعدم الحاجة اليه ، وإنما يجب عند الخوف وظهور الفتن .

وذهب الخوارج الى عدم وجوبه مطلقاً .

وذهب القوطي وأتباعه الى عكس ما ذهب اليه الاصم ، لانه عند الفتن ، ربما يؤدي نصبه لزيادتها .

ومستند أهل السنة ، اجماع المسلمين على نصب أبي بكر خليفة بعد وفاته ﷺ ، وقد قال أبو بكر رضي الله عنه في خطبته : إن محمداً قد مات ، وإنه لابد لهذا الدين ممن يقوم به ، فبادر الكل إلى تصديقه ، والاجماع دليل شرعي سمعي ، ولم يخالف في ذلك أحد من المسلمين ، وأرباب الدين . وبَسْطُ الادلة لكل قائل ، وذكرُ الردود والانتصار ، موضوعه كتب أصول الدين ، فإقامة الخليفة بين الناس واجبة على أهل الحل ،والعقد من المسلمين، .

واتفق أهل السنة ، والمعتزلة على أن الخلافة سبب حصولها عقد البيعة ، واختلفوا في اشتراط العدد في أهل الحل والعقد[٣] ، على ماهو مقرر في علم الاصول والفقه ، وقد استوعبت الكلام على هذه الفصول في كتابي الذي سميته (٧) بإيضاح المراشد في أجوبة أبي راشد ، وقد كان نعق ناعق ممن تعلق بأذيال بعض الفقهاء ببجاية ، أفتى ، لما حوصر مولانا أمير المسلمين ، أبو الحسن ، رحمة الله عليه ، بالقيروان ، بعجزه وانخلاعه من الخلافة[٤] ،

---

١ ــ ان القاضي عبد الجبار خير من تعرض لقضية الامامة ، انظر كتابه المغني ، الجزء المتم العشرين في مجلدتين ــ ط . القاهرة .

٢ ــ من كبار رجال الاعتزال ، عاصر المأمون وتوفي سنة ٢١٠ وقيل ٢١١ ، له عدة كتب منها كتاب في الامامة . انظر الفهرس لابن النديم . ط. طهران : ص ٢١٤ . المنية والامل في شرح الملل والنحل . ط . بيروت ١٩٧٩ ص ١٥٦ ــ ١٥٧

٣ ــ احسن من كتب حول هذا الموضوع الماوردي في الاحكام السلطانية ، فلينظر .

٤ ــ انظر نخب من كتاب المسند الصحيح : ١٨ ــ ٢٢ .

وأحسن من استوعب الكلام في هذا الاصل ، المازري من علمائنا المالكية ، في مقدمة كتاب القضاء ، من شرح التلقين ، فإنه حرر في مواضع، الخلاف ، وهذب طرفها ، واستوفى ما يحتاج اليه من ذلك ، وبينت هنالك أن الخلافة صارت لمولانا أبي الحسن رحمة الله عليه ، بعهد أسلافه، وانعقاد إجماع أهل العدوتين[1] عليه .

الفصل الثالث ــ في فضل الخلافة

ومن المقرر أن شرف الشيء هو بحسب نسبته واضافته . واذا كانت الخلافة نيابة عن الله ورسوله ﷺ ، فلا منزلة أعلى منها ، ولا شرف يساميها ، روينا في الصحيح عن عبد الله بن.... قال : قال رسول الله ﷺ : « لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق ، وآخر آتاه الله الحكمة ، فهو يقضي ويعلمها » ، وروينا في الصحيح المجمع عليه قوله ﷺ : سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله » ، قال بعض علمائنا : ولا يجتمع جميعها إلا في إمام ، وجرت لمولانا أبي الحسن رحمة الله عليه حكاية أجراها عبد الله بن علي[2] ، وزيرهم كان ، وتربيتهم بين أصحابنا الفقهاء ، فاتفق جميعهم على ما خبروه من أحواله رضي الله عنه ، أنه جمع الخصال السبع ، وسنقف على ذلك فصلاً ان شاء الله تعالى في أعماله وأحواله، مستقرأ بحول الله تعالى ، (٨) وقد خرّجت أربعين حديثاً في فضل الخلافة ، وأودعت جملة منها في كتابي الذي عارضت فيه كتاب « العفو الاعتزاز » وعهدي بذلك كله في خزانتهم .

وروينا عنه ﷺ أنه قال : « أهل الجنة ثلاثة : ذو سلطان مقسط موفق ، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم ، وعفيف متعفف ذو عيال » ، وعن عبد الله بن عمرو بن العاص ــ رضي الله عنهما ــ قال : قال رسول الله ﷺ : « إن المقسطين عند الله على منابر من نور العرش : الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم، وماولوا » أخرجه مسلم ، وعنه ﷺ : « الامام العادل لا تكاد تردّ دعوته » ، أخرجه الحافظ ابن عبد البر ، وقال ﷺ : « السلطان ظل الله في الارض » ، فقيل ظله خاصة ، وقيل ستره ،وقيل عزه ، وقيل أمانه .

الفصل الرابع ــ في وجوب طاعته وتحريم عصيانه ومخالفته

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره ، إلا أن يؤمر بمعصية، واذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » متفق عليه .

وعنه قال : كنا اذا بايعنا رسول الله ﷺ ، على السمع والطاعة ، يقول لنا : « بما استطعتم »، متفق عليه .

وعنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من خلع يداً من طاعة ، لقي الله يوم القيامة ولا حجة له ، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية » رواه مسلم ، وفي رواية : « ومن مات : وهو مفارق للجماعة ، فإنه يموت ميتة جاهلية » ــ الميتة بكسر الميم .

---

١ ــ اي المغرب والاندلس .
٢ ــ انظر نخب من كتاب المسند : ٢٦ .

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (٩) : « اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأنّ رأسه زبيبة » ، رواه البخاري •

وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « عليك بالسمع والطاعة في عسى وليس ، ومنشطك ومكرهك ، وأثره عليك » •

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، قال : كنا مع رسول الله ﷺ في سفر ، فنزلنا منزلاً ، فمنا من يصلح خباءه ، ومنا من يتنضل ، ومنا من هو في جشر ، إذ نادى منادي رسول الله ﷺ : الصلاة جامعة : فاجتمعنا الى رسول الله ﷺ ، فقال : لم (يكن) نبي قبلي الا كان حقا على الله أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم ، وإن أمتكم هذه جعل الله عاقبتها في أولها ، وسيصيب آخرها بلاء ، وأمور تنكرونها ، وتجيء فتنة يرقق بعضها بعضا ، وتجيء الفتنة ، فيقول المؤمن : هذه مهلكتي ، ثم تنكشف ، وتجيء الفتنة فيقول المؤمن : هذه ، هذه ، فمن أحب أن يزحزح عن النار ، ويدخل الجنة ، فلتأته منيته وهو مؤمن بالله ، واليوم الآخر ، وليأت للناس الذي يحب أن يؤتى اليه ، ومن بايع إماما فأعطى صفقة يده ، وثمرة قلبه فليطعه إن استطاع ، فان جاء آخر ينازعه ، فاضربوا عنق الآخر » رواه مسلم • وقوله : يتنضل أي يسابق بالنبل الرمي : والجشر ـ بفتح الميم والشين المعجمة والراء ـ الدواب التي ترعى وتثبت مكانها ، وقوله يرقق بعضها بعضاً رقيقا ، أي خفيفا لعظم ما بعده ، فالثاني يرقق الاول ، وقيل معناه ليسوق بعضها الى بعض لتحسينها وتسويلها ، وقيل يشبه بعضها بعضاً •

وعن عوف بن مالك ـ رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « خياركم أئمتكم الذين يحبونكم وتحبونهم ، وتصلون عليهم ، ويصلون عليكم (١٠) وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم ، وتلعنونهم ويلعنونكم » قال : قلنا : يا رسول الله ، أفلا ننابذهم ؟ قال : لا ، ما أقاموا فيكم الصلاة ، لا ، ما أقاموا فيكم الصلاة أخرجه مسلم •

وعن وائل بن حجر ، رضي الله عنه ، قال : سأل سلمة بن يزيد الجعفي رسول الله ﷺ ، فقال : يانبي الله ، أرأيت إن قامت علينا أمراء يسئلونا حقهم ، ويمنعونا حقنا ، فما تأمرنا ؟ فأعرض عنه ، ثم سأله ، فقال رسول الله ﷺ : اسمعوا وأطيعوا ، فإنما عليهم ما حملوا ، وعليكم ماحملتم ، رواه مسلم •

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : من أطاعني فقد أطاع الله ، ومن عصاني فقد عصا الله ، ومن يطع الامير فقد أطاعني ، ومن يعص الامير فقد عصاني ، متفق عليه •

وعن ابي بكر ـ رضي الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ ، يقول : من أعان سلطاناً أعانه الله ، رواه الترمذي ، وقال : حديث حسن •

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ أن

رسول الله ﷺ قال : من كره من أميره شيئاً فليصبر ، فإنه من خرج من سلطان شبراً مات ميتة جاهلية . متفق عليه . وقد اجتمع لي من أحاديث تحريم الخروج عن الأئمة مايزيد على الاربعين ، أودعتها غير هذا .

الفصل الخامس ــ في تفضيل الحكام

على المفتين والأئمة على الحكام

وهذا فصل أودعه الامام عز الدين بن عبد السلام ــ رضي الله عنه ، كتاب « القواعد » له ، وهو فصل نفيس ، يدل على فضل الامامة ، دلالة ظاهرة ، وقد تظاهرت الأدلة السمعية والعقلية على فضل العلماء المفتين في الدين ، فقال عز الدين : ان قيل : هل يتساوى أجر الحاكم ، والمفتي ، القائمين بوظائف الحكم والفتوى أم لا ؟ فالجواب : ان أجر الحاكم أعظم لأنه يفتي ويلزم ، فله أجران : أحدهما على فتواه ، والآخر على الزامه ، هذا اذا استوت الواقعة[11] التي فيها الحكم والفتوى ، وتختلف أجورهما باختلاف ما يجلبانه من المصالح ، ويدرآنه من المفاسد ، وتصدي الحاكم للحكم أفضل من تصدي المفتي للفتوى ، وأجر الامام الأعظم ، أفضل من أجر المفتي والحاكم ، لأن ما يجلبه من المصالح وما يدرؤه من المفاسد أتم وأعم ، وكذلك جاء في الحديث الصحيح : « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل الا ظله : امام عادل ، فبدأ به لعلو مرتبته » .

وأجمع المسلمون على أن الولايات من أفضل الطاعات ، وأن الولاة المقسطين أعظم أجرا ، وأجل قدرا من غيرهم ، لكثرة ما يجري على أيديهم من اقامة الحق ، ودرء الباطل ، فان أحدهم يقول الكلمة الواحدة ، فيدفع بها مائة ألف مظلمة فما دونها ، ويجلب بها مائة ألف مصلحة فما دونها ، يناله من كلام يسير ، وأجر كبير .

وأما قضاة السوء ، وولاة الجور ، فمن أعظم الناس وزراً ، وأحطهم درجة عند الله عز وجل ، لعموم ما يجري على أيديهم من المفاسد العظام ، ودرء المصالح الجسام ، وان أحدهم ليقول الكلمة الواحدة ، فيكتسب بها ألف اثم ، أو أكثر ، بحسب عموم مفسدة تلك الكلمة ، أو على حسب عموم ما يضيعه بتلك الكلمة من مصالح المسلمين ، فيالها من صفقة خاسرة ، وتجارة بائرة ، مثال ذلك أن يأمر بقتل طائفة من المسلمين ، أو يأخذ أموالهم ، أو بتمكيسهم ، أو بتضمين المسلمين ألقابا ، أو بتضمين البغايا ، والخمور ، وغير ذلك من المحرمات المغضبات لرب الأرضين والسموات ، واذا أمر العادل بابطال هذه المحرمات ، التي أمر بها الجائر ، أثيب على التسبب الى درء هذه المفاسد المذكورات على حسب قلتها وكثرتها ، وعمومها وشمولها ، فياله من سعي ناجح ، ومتجر رابح .

وقد قال سيد المرسلين : « المقسطون على منابر من نور ، عن يمين الرحمن » ، ــ وكلتا يدي الرحمن اليمين ــ وعلى العموم فالعادل من الأئمة والولاة ، والحكام أعظم[12] أجرا من جميع الأنام ، باجماع أهل الاسلام ، لأنهم يقومون بجلب كل صلاح كامل ، ودرء كل فساد

شامل ، فاذا أمر الامام بجلب المصالح العامة ، ودرء المفاسد العامة ، كان له أجره بحسب ما دعا اليه من المصالح ، وزجر عنه من المفاسد ، ولو كان ذلك بكلمة واحدة ، أجر عليها بعدد متعلقاتها ، كما ذكرنا .

وكذلك أجر أعوانه على جلب المصالح ، ودرء المفاسد ، فاذا أمر الامام بالجهاد ، كان مسببا لحمل تحصيل مصالحه بالعبادات مباشرة القتال ، والمباشر للقتال أعظم أجرا من أجر الامام ، لأن الامام وسيلة الى مصالح الجهاد ، والمقاتل مباشر ، لكن الظاهر أن أجر الامام أفضل من أجر الواحد من المجاهدين ، فاذا كانوا ألفاً ، كان لكل واحد منهم أجر مباشرته على حسب ما باشر ، وللامام أجر سببه قتال الألف ، فقد صدر منه ألف تسبب ، والألف تسبب أفضل من مباشرة واحد ، لأن تلك التسببات حصلت مصالح القتال ، ولو فرض أنه أمر واحد بالقتال فقاتل ، وحصلت المصلحة المأمور بها ، فلا شك أن المباشر أفضل من الآمر ، وليس أمر الحاكم لأحد أعوانه لذلك ، فان الحاكم متصد لسماع الدعوى وجوابها ، وسماع البينة واستزكائها ، ثم الحكم بعد ذلك ، فقد صارت منه طاعات متعددة ، ولم يصدر من آحاد أعوانه سوى طاعة واحدة ، وأما المفتون فيقفون على تصديهم للفتوى ، وتفاوت أجورهم بتفاوت أكثر الفتاوى ، وخصوصها وعمومها . انتهى كلام هذا الامام في هذا الأصل ، وهو عجيب .

الفصل السادس ــ بما يؤمر به الخلفاء رضي الله عنهم من الرفق بالرعية ونصيحتهم والشفقة عليهم : وتحريم غشهم ، والتشديد عليهم ، واهمال مصالحهم (١٣)

وهذا باب يتسع فيه مجال المقال وأهلية خليفتنا المرحوم ، وخليفته ووارثه المؤيد وسيرتهما ، وما أجراه الله على الألسن من مدحهما ، وأودعه في صحف القلوب من محبتهما يغني عن الاطناب منه ، وجلب ما تقتضيه من الأحاديث والآثار في الباب ، ونرويه ، فلنقتصر على أقل ما يورد في ذلك :

فنقول : قال الله تعالى : « ان الله يأمر بالعدل والاحسان » الآية ، وروينا عن ابن عمر رضي الله عنهما ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته ، فالامام راع ومسؤول عن رعيته ، والرجل راع في أهله ، ومسؤول عن رعيته ، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها ، والخادم راع في مال سيده ، ومسؤول عن رعيته ، وكلكم راع ومسؤول عن رعيته » ، متفق عليه .

وعن معقل بن يسار رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من عبد يسترعيه الله رعية ، يموت يوم يموت ، وهو غاش لرعيته الا حرم الله عليه الجنة » ، متفق عليه . وفي رواية : « فلم يحطها بنصيحة » .

وعن عائشة رضي الله عنها ، قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول في بيتي : « اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً ، فشفق عليهم ، فأشفق عليه ،

ومن ولي من أمر أمتي شيئا ، فرفق بهم ، فأرفق به » • رواه مسلم •

وعن أبي مريم الأزدي ـ رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من ولاه الله شيئاً من أمور المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وخلتهم ، احتجب الله دون حاجته وخلته وفقره يوم القيامة » فجعل معاوية رجلا على حوائج الناس • أخرجه الترمذي ، وأبو داود •

فالحمد لله الذي طهر أئمتنا من رذيلة الظلم والجور ، وجعلهم أحسن الملوك قياماً بسياسة الرعايا[١٤] ، والنصح لها ، وأشدهم شفقة عليها ، وأحرصهم على ايصال الخير اليها ، وأبعدهم من الاحتجاب عنها ، وأقربهم منها •

ولنقتصر من هذه المقدمة على هذه الفصول الستة ، وسيأتي ان شاء الله في أثناء هذا الكتاب عند ذكر خصالهم رضي الله عنهم ، مما نقلنا معظمه مباشرة ، ما تستفاد منه السير الجميلة ، وتقتضيه سياسة الملك ، منظوما نثاره في أحسن سلك ، بحول الله[١٥] •••

